

تجليات السخرية في الأعمال السياسية لنزار قباني

-العنوان أنموذجاً-

م.د. وسن عبد الغني مال الله المختار *

تأريخ التقديم: ٢٠١٨/١١/١٤

تأريخ القبول: ٢٠١٨/١٢/٢٤

أولاً- مفهوم السخرية:

تعد السخرية من أصعب المصطلحات تحديداً، إذ لا يوجد تعريف جامع مانع لغيره من التعريفات، نظراً لارتباطها بعلوم أخرى كالبلاغة وعلم النفس من جهة، فضلاً عن تشابك مفهومها اصطلاحياً مع مفاهيم أخرى قريبة منها في الصفة كالفكاهة، والتهكم، والهزاء، والكوميديا والمفارقة وغيرها كثير من جهة أخرى^(١).

وعلى العموم فهذا التداخل دليل على حيوية مصطلح السخرية بوصفه فناً متطوراً قابلاً للتجديد^(٢)، إذ ينظر إليها على أنها انفعال نفسي يتشكل في وجدان الإنسان، وحالة خفية تقض مشاعر المنفعل^(٣)، فتظهر بأنماط عدة وطرائق متعددة على شكل حركات في الوجه والجوارح أو تتجسد بكلمات وجمل أي إنها "انفعال وجداني وحيوي متجدد"^(٤)، ولذلك اقترنت السخرية بالضحك والفكاهة، إذ تعرف على أنها "صفة في العمل أو في الكلام أو في الموقف أو في الكتابة التي تثير الضحك لدى النظارة أو القراء"^(٥)، وليس ببعيد وصف المناطق للإنسان بأنه حيوان ضاحك لتمييزه بهذه الصفة، فالسخرية والفكاهة

* قسم اللغة العربية/ كلية التربية للبنات/ جامعة الموصل .

(١) ينظر: السخرية في شعر البردوني، عبد الرحمن محمد محمود الجبوري، رسالة ماجستير، كلية

التربية - جامعة الموصل بإشراف: أ.د. عمر الطالب: ٨.

(٢) ينظر: الضحك، هنري برجسون، ترجمة: د. سامي الدوري، د. عبد الله الدايم، دار اليقظة العربية،

دمشق، ط١، ١٩٦٤م: ١٣.

(٣) ينظر: تعدد الرؤى نظرات في النص العربي القديم، د. منتصر عبد القادر الغضنفر وآخرون،

دار مجدلاوي، عمان - الأردن، ط٢٠١٠م، ٧١.

(٤) الضحك: ١٣.

(٥) السخرية والأدب، صادق إبراهيمي كاوري، مجلة المعرفة السورية، العدد، ٤٨٩، لسنة ٢٠٠٤، ٩٣.

يلتقيان في المادة والطريقة^(١)، إذ إن كل ما يضحك هو هزل إلا أنه ينقسم على قسمين: أحدهما ليس له غرض أو هدف إلا الإضحاك وهي الفكاهة الخفيفة التي لا تعتمد الإيذاء ولا تصل إلى الإيلام، بل تحمل في طياتها بواعث الابتسامة والإعجاب بقائلها، وهي أخف وطأة وأقل شراً من النوع الثاني الذي له غرض هادف من السخرية يتمثل في الإصلاح وتقويم المعوج، وتتميز بأنها سخرية مرة لاذعة، ويجتمع فيها الضحك والبكاء المر في الآن نفسه لشدة وطأتها وأثرها البالغ^(٢)، وأغلب سخرية عنوانات قباني تندرج ضمن هذا النوع نظراً لارتباطها بأحداث عظيمة ووقائع مؤلمة في حياة أمتنا العربية في تاريخها المعاصر، إذ إن السخرية عنده تمثل ثورة سياسية واجتماعية وفكرية يستعير أوارها في داخل الشاعر، لتظهر في نصوصه.

وبناء على ما تقدم يمكن وصف السخرية بأنها تعبير عن عكس ما يقصده المتكلم فعلاً، وهي بذلك تقترب من مصطلحات بلاغية عدة كالتورية والتهمك والمشاكله^(٣)، لأنها طريقة من طرائق التعبير ولاعتماد هذه المصطلحات جميعاً على فكرة التلاعب بالألفاظ، وما تتطلبه من سرعة بديهة المتلقي في إدراك أفانين السخرية وتعدد أنواعها^(٤)، فليست السخرية مجرد صياغة وميزة لفظية حسب، بل إنها "فعل ذهني مرتبط بأساس جوهري وعميق في النفس التي تصوغه"^(٥)، مثلها في ذلك مثل المفارقة، لأن السخرية في جوهرها

(١) ينظر: السخرية في شعر البردوني: ٩ ومصادرهما.

(٢) ينظر: م، ن: ١٠ ويسمى القسم الأول بالسخرية الباردة (النشيد الهوراسي)، أما القسم الثاني فيسمى بأدب الأحداث والسخرية اللاذعة ينظر: أدب السخرية السياسية، كاظم جهاد: ٤.

www.assafir.com

(٣) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ط ٢، ١٩٧١م: ٢٦٣. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، أحمد الهاشمي، شرح وتعليق: حسن أحمد، دار الجيل، بيروت (د. د. ط)، (د. د. ت): ٢١٨: ٢١٩.

(٤) السخرية والأدب: ١٠٣.

(٥) فضاءات الشعرية: دراسة في ديوان أمل دنقل، د. سامح الرواشدة، المركز القومي للنشر، أريد، ١٩٩٩م: ١٤.

(*) لأنها نمط من أنماط المفارقة، إذ تسعى إلى التهمك والازدراء من الآخر ينظر: مغاني النص: دراسات تطبيقية في الشعر الحديث، د. سامح الرواشدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، وزارة الثقافة، عمان - الأردن، ط ١، ٢٠٠٦: ٦٠.

تعتمد المفارقة اللفظية^(٥) التي هي "شكل من النقيضة"^(١)، لأنها تستوجب استثارة المتلقي لرفض المعنى الحرفي للكلام لصالح المعنى الآخر الخفي^(٢)، وهذا يعني أن السخرية لا تنهض إلا بالمفارقة، لان المفارقة أداة السخرية، شرط نجاح السخرية ألا تكون غاية في نفسها، بل هي وسيلة الفنان لإظهار ما يريد إظهاره^(٣)، من أجل ذلك "أكد النقد الأدبي على تلاحم المفارقة والسخرية، ووجد بينهما أسلوبيا، فأصبحت المفارقة الوسيلة الأسلوبية التي تتنفس بها السخرية هواءها الشعري... وذلك عندما تراجع حظ النظرة التقليدية للسخرية التي كانت تجعلها نمطا دلاليا ذا طابع سياقي يحفل بالدلالة أكثر من احتفائه بالشكل الفني، فالمفارقة والسخرية هما من صفات الشعر الرفيع"^(٤)، والسخرية تعتمد "السؤال عن شيء مع إظهار الجهل به، وأن تلقي على محدثك لعدم التسليم بأقواله أسئلة تثير الشكوك في نفسه، حتى إذا انتقل من قول إلى آخر أدرك ما في موقفه من التناقض واضطر إلى التسليم بجهله"^(٥)، وفي المحصلة فإن السخرية "طريقة في الكلام يعبر بها الشخص عن عكس ما يقصده بالفعل"^(٦)، إذ يندرج تحتها معان متعددة منها الهجاء المستور والتوبيخ والازدراء والرياء والتصنع وتجريد الخصم من ميزاته على نحو هزلي^(٧)، وهذا ممكن الإبداع فيها.

ثانيا- علاقة السخرية بالسياسة:

مما لا شك فيه أن للسخرية أنواعا متعددة، ولعل الأشهر بينها السخرية السياسية التي تعد جزءاً لا يتجزأ من الأدب السياسي الذي يتطلب التزام الأديب بقضية سياسية معينة يؤمن بها ويدافع عنها مهما تغير الزمن أو تبدلت الأحوال والدول^(٨)، إذ تدور الدلالة

(١) المفارقة وصفاتها، د. سي. ميوك، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٢م: ٣٥-٣٦

(٥) ينظر: المفارقة، نبيلة إبراهيم، مجلة فصول، القاهرة، العدد ٤، ٣، لسنة ١٩٨٧م: ١٤٠.

(٦) ينظر: شعرية السرد في شعر احمد مطر: دراسة سيميائية جمالية في ديوان لافتات، د. عبد الكريم

السعيد، دار السياب، لندن، ط١، ٢٠٠٨م: ١٢٨.

(٤) م.ن: ١٢٩.

(٨) المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، ج٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٢م: ٣٣٦/١.

(٩) معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب، مجدي وهبة، كامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت

ط١، ١٩٧٩م: ٢٦٣.

(١٠) ينظر: فضاءات الشعرية: دراسة في ديوان أمل دنقل: ١٣.

(٨) ينظر: تعدد الرؤى: ٧٣.

اللغوية للسياسة حول الأمر والنهي على الناس، وتدبير شؤونهم ومعاشهم، وتملك أمرهم، والرئاسة عليهم، وإصلاح أحوالهم على سنن العدل والاستقامة وهي السياسة المدنية ولا تكون إلا للحاكم^(١)، في حين يعرف الشعر السياسي بأنه ذلك "الفن من الكلام الذي يتصل بنظام الدول الداخلي، أو بنفوذها الخارجي ومكانتها بين الدول"^(٢).

وبناء على ما تقدم فالسخرية السياسية تعني التهكم السياسي، لأنها تتضمن التنفيس عن المظلومين المكبوتين، وبيث الراحة لأنفسهم المتعبة لما فيها من الملهاة والمسلاة^(٣)، وهذا يعني أن الأدب الساخر غالباً ما يخفي مدلولاً نقدياً وراء سطحه الظاهر^(٤)، لذلك تعد السخرية طريقة للخلاص من الرقابة السياسية، وهذا يعني أن ضحك السخرية لا يفضي إلى الفرح دائماً وإنما يفضي إلى الألم لأنه ضحك حار كالبكاء أو هو كوميديا سوداء^(٥)، ولا سيما ما كان مصدره الاستخفاف بالذات وجلدها^(*).

فالعلاقة بين السخرية والسياسة تبدو علاقة وطيدة، إذ إن السياسة تعد هدفاً طبيعياً للسخرية ولا سيما في شيوخ الظروف السياسية المضطربة وما يصحبها من توتر وقلق وصراع دائم، فتكاد هذه الظروف تعد محضناً ومناخاً مواتياً لشيوع فن السخرية^(٦) وانتشاره منذ القدم وحتى يومنا هذا، ولا سيما إذا اقترن بالحروب والنكبات التي تمر بها شعوب العالم الثالث عامة وبلادنا العربية خاصة وعلى رأسها نكبة العرب في حزيران عام ١٩٦٧م، لأن هذا الفن يعد الأكثر انتشاراً بين هذه الشعوب التي لا تستطيع تنتقد ساستها وما يجري في بلادها صراحة، فتلجأ إلى السخرية غير المباشرة وأحياناً اللاذعة

(١) ينظر: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، د. عبد المنعم الحنفي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٠م: ٤٢٥.

(٢) السخرية في الشعر الحر: نزار قباني أنموذجاً، عبد الكريم البو غبيش: ٢. www.diwanaalarab.com

(٣) ينظر: تعدد الرؤى: ٧٣.

(٤) ينظر: شعرية السرد في شعر أحمد مطر: ١٢٨.

(٥) ينظر: م، ن: ١٢٨.

(*) وسيأتي بينها لاحقاً

(٦) ينظر: السخرية في شعر البردوني: ١٩.

لتصوير ما يمر عليها من المصاعب والمصائب^(١)، وهذا يستلزم بلا شك توفر عنصرَي الذكاء واللباقة في اقتناص المواقف والربط بين المطلوب والموجود والظاهر والمستور، وهذا ما حققه نزار قباني في شعره السياسي، فقد امتحن السياسة بوصفه سفيراً في السلك الدبلوماسي، وممثلاً لبلاده في عدد كبير من الدول العربية والأجنبية، إذ عرف بدقة تعبيره عن آلام الأمة وأمالها، ولاسيما بعد النكسة التي حولته إلى شاعر يكتب بالسكين بعد أن كان يكتب شعر الحب والحنين، فكانت قصيدته (هوامش على دفتر النكسة) من أهم القصائد السياسية التي أيقظت الشارع العربي من رفته الطويلة، وجسدت حجم المأساة وعظمتها لهذه النكسة بكل أبعادها، فكان نزار الشاعر القومي، والمناضل الثوري الذي يسن القلم مع إخوانه المناضلين بالسلاح^(٢)، فكان أسلوبه الساخر في قصائده وعنواناتها أمضى من حد السيف، إذ يقول فيها^(٣)

يا وَطَنِي الحزِينُ

حوَلْتَنِي بلِحْظَةٍ من شاعرٍ يكتبُ شِعْرَ الحُبِّ والحَنِينِ

لشاعرٍ يكتبُ بالسكينِ...

ثالثاً- أهم العناوين الساخرة في شعر نزار قباني :

يشكل العنوان عتبة قرائية مهمة ومفتاحاً إجرائياً لا يستطيع القارئ الولوج إلى عالم النص دون وجوده، فهو النقطة الأولى التي تقلص مساحة البياض، والقارئ يدخل إلى النص من خلال عنوانه، فهو "جزء من استراتيجية النص، لان له وظيفة في تشكيل اللغة الشعرية ليس بوصفه مكملاً أو دالاً على النص، ولكن من حيث هو علاقة لها بالنص علاقات اتصال وانفصال"^(٤) في الوقت نفسه، ونتيجة لهذه العلاقة المتينة فلا يمكن لأي قارئ تجاوز هذه العتبة، لأنه بذلك يقطع حركة التيارات المتبادلة بين النص وعنوانه، التي توصل القارئ من خلالها إلى صورة أوضح عن دلالية النص، إذ "بات العنوان جزءاً من البناء الدلالي للنص، وبالتالي فهو نافذة النص المشرفة على العالم

(١) ينظر: السخرية في الشعر الحر: ٣ .

(٢) ينظر: م. ن: ٣ .

(٣) الأعمال السياسية الكاملة: ٢١/٢ .

(٤) سيمياء العنوان، بسام قطوس، وزارة الثقافة، عمان- الأردن، ط١، ٢٠٠١: ٥٧.

ترمي إلى الإظهار أو الكشف عن قابلية النص للقراءة، ومؤشراً دالاً عليه^(١) أيضاً، ولذلك حظي العنوان دائماً بأهمية كبرى في المقاربات النصية باعتبارها أحد المفاتيح الأولية التي على الباحث أن يحسن قراءته وتأويله والتعامل معه، إذ يمدنا بمجموعة من المعاني المساعدة في فك شفرات النص، وتسهل مأمورية الدخول إلى أغواره وتقنياته^(٢)، على أن اختيار عنوان للنص الأدبي لا يتم "بطريقة اعتباطية أو تعسفية، وإنما يجب أن يكون بينه وبين النص علاقة تناغم وانسجام في إطار دلالي كبير"^(٣).

ويعد نزار قباني واحداً من الشعراء الذين يولون العنونة أهمية فائقة، لأن عناوين قصائده الساخرة في أغلبها ائتلافية مع نصوصها، فالعنوان مؤيد للنص ومرتبط معه بعلائق، والنص يعضد دلالية العنوان وفحواه، ولعل هذا ما يميز الشاعر نزار قباني عن غيره، ولاسيما في دقة اختياره لعناوين قصائده السياسية، على أننا ركزنا على تتبع العنوانات الساخرة ضمن فكرة محددة تدور حول سياسات الحكام العرب تجاه الأحداث السياسية التي مرت بها الأمة العربية - ولاسيما احتلال فلسطين، ونكسة حزيران وما رافقها من انكسارات نفسية للمواطن العربي - وأثر هذه الانكسارات على تعامل الحكام مع شعوبهم العربية، وكيفية تصوير الشاعر لها، وتمثيل الوضع الراهن في العالم العربي؛ لذا ضم البحث سخریات متعددة بناء على عناوين القصائد وعلى النحو الآتي:

لعل من أبرز سخریات العنونة عند نزار قباني في أعماله السياسية سخريته من الحاكم العربي الذي لا يعترف بحقوق الإنسان نرصدها في عنوان قصيدته (**لماذا يسقط متعب بن تعبان في امتحان حقوق الإنسان**)^(٤)، إذ نجد أن أغلب انتكاسات الواقع العربي تبدأ من سياسة الحكام التعسفية في التعامل مع المواطن العربي وحقوقه الآتية والمستقبلية

(١) في نظرية العنوان مغامرة تاويلية في شؤون العتبة النصية، خالد حسين حسين، دار التكوين دمشق، ٢٠٠٧م : ١٧٤.

(٢) ينظر: من العتبة إلى مضمرات النص : مقارنة سيميائية لقصيدة (تحت زيتونة تشتهي أن تعيش للشاعر الفلسطيني إبراهيم نصر الله عبد الجواد خفاجي: ١٥ . khfajy.maktoobblog.com

(٣) م، ن : ١٦.

(٤) الأعمال السياسية الكاملة، نزار قباني، ج ١-٢، دار قباني، دمشق، (د. ط)، (د. ت): ٦٤٥ -

المستلبة في بلاده، فليس ببعيد انتهاكات الدول الخارجية للشعوب العربية فيها كل زمان ومكان ، والعنوان يشغل مساحة كتابية واسعة، فعلى قدر المعاناة تمتد المساحة الخطية للعنوان هذا من جهة، وربما أراد الشاعر الإغراق في نقد الحاكم عبر إكمال الصورة الكاريكاتيرية الساخرة له، وهي "صورة تجنح إلى تشويه العنصر المتشكل بهدف تعرية سلوك الناس على نحو مثير للغربة والعجب"^(١)، ووسيلته تسخير أسلوب الاستفهام ب(لماذا) ، فهو يستفهم عن سبب سقوط (متعجب) كناية عن الحاكم العربي في حقوق الإنسان، إذ خرج هذا الاستفهام إلى غرض مجازي يفيد التهكم والازدراء والتبكي، كما أن افتتاح عنوان القصيدة بالاستفهام يعد منها أسلوبيا يفيد التشويق والتيقظ في الوقت نفسه لمتابعة فحوى النص، فالاستفهام " فاتحة أسلوبية تدفع المتلقي للمتابعة والمضي مع النص لكشف أسباب هذا الاستفهام ودوافعه، ذلك أن اختيار الكلام يأتي لهدف أساس هو تقديم القصد والغاية"^(٢)، ولما كان الاستفهام أسلوبا طلبيا لا يكتمل معناه إلا بالإجابة عليه، فإن قباني يسأل ويجيب في الوقت نفسه، وهذا ادعى لإبراز سخريته قوية مجلجلة، لان الاستفهام من ابرز أساليبها التركيبية ، واقتربت بأول شيء يطالعه المتلقي وهو العنوان لتكون الإجابة متمثلة في أبيات القصيدة فتتجلى العلاقة المتكاملة بين النص وعنوانه، كما إن لاختيار لفظة (يسقط) أبعادا دلالية، فهي دالة على التجدد والاستمرار^(٣)، لأنها صيغة زمنية مضارعة دالة على تجدد السقوط ليشمل الحاضر والمستقبل، هذا من الناحية البنائية، أما من الناحية المعنوية فدلالة السقوط أقوى من دلالة الفشل أو الرسوب مثلا في عدم تجاوز امتحانٍ ما، وفي المحصلة فإن الشاعر أراد بتوظيف هذه الدلالة وتزامنها مع لفظة (بن)- وهي لفظة ملازمة للثقافة العربية- بيان أن السقوط صفة ليست بالجديدة على الحكام في واقعنا العربي عبر مختلف الزعامات

(١) مغاني النص: ٦٩.

(٢) م. ن: ٦٥.

(٣) الدلالة الزمنية في الجملة العربية، د. علي جابر المنصوري، المكتبة الوطنية، مطبعة الجامعة، بغداد، ط١، ١٩٨٤م : ٣٥.

العربية، إلا أن تجلي مفارقة السخرية^(١) تكمن في استقهام الشاعر عن سبب السقوط وهو يعلم تماماً كالقارئ أن الساقط هو (متعب بن تعبان)! الذي لا يرجى شفاؤه من مرضه الملازم له، لأنه جزء من ذاته، لا بل هو صفة لصيقة في اسمه واسم أبيه (فمتعب) اسم مفعول دال على تجدد هذا التعب بين وقت وآخر، أما (تعبان) فصفة مشبهة دالة على دوام الحال وثباته في كل وقت ، واختارهما الشاعر للدلالة على عجز الحاكم عن قبول التغيير والإصلاح في ذاته، ودولته، ورفضه حتى الإصغاء للصوت للأخر (الشعب)، ومصادرة حقوقه، لذلك اختار الشاعر مادة السقوط وهي (امتحان حقوق الإنسان) لدلالة مخصوصة في عدم احترام كرامة الإنسان، وحقه في الحياة والعيش الكريم وحرية الرأي ، فالامتحان وهو المحك الحقيقي لصلاح الحكم، ومما عمق السخرية تزامن التوازنات الصوتية في رصف كلمات مسجوعة ومتجانسة تجانسا غير تام ك (تعبان وإنسان) مرة، وجناس الاشتقاق بين (متعب وتعبان) مرة أخرى، وهي من المحسنات البديعة لتعميق دلالة السخرية من خطابات الحكام العرب السياسية لشعوبهم التي تتميز بكثرة السجع فيها وكأنها خصيصة في خطاباتهم وربما كان كثرة خطاباتهم بمناسبة ومن دونها سبب تعبهم المتواصل! ويكشف الشاعر أن إجابة سؤال العنوان في السقوط تتضح من خلال النص بقوله:^(٢)

مُؤَاطِنُونَ .. دُونَمَا وَطَنَ

مُطَارِدُونَ كَالعَصَافِيرِ عَلَى خِرَانِطِ الزَّمَنِ ..

مُسَافِرُونَ دُونَ أَوْرَاقِ

وَمَوْتِي دُونَمَا كَفَنُ .

نَحْنُ بَغَايَا العَصْرِ ... كُلُّ حَاكِمٍ

يَبِيعُنَا، وَيَقْبِضُ الثَّمَنُ !!

نَحْنُ جَوَارِي القَصْرِ، يُرْسِلُونَنَا

مِن حُجْرَةٍ لِحُجْرَةٍ

(١) ويبنى هذا النوع على موقف يناقض ما ينتظر فعله تماما ،كأن يكون رد فعل من اغتصب حقه مثلا

الرضا بالذل، فتأتي الصورة كاشفة بعد المفارقة . ينظر : فضاءات الشعرية: ١٨ .

(٢) الأعمال السياسية الكاملة: ٢/ ٦٤٥ .

من قبضةٍ لقبضةٍ

من هالكٍ لمالكٍ

فهذا النص يكشف مدى الاستخفاف والتلاعب بمصائر الشعوب من حكامها، فلا يشعر المواطن بأبسط حقوقه الإنسانية في الانتماء إلى وطن يحتضن أبناءه، فالشاعر يرى أن الشعوب قسمان؛ إما (بغايا) تطبل للسلطان وتسعى وراء مكاسب شخصية تباع فيها الضمائر وتشتري فيها الذمم، وإما (جواربي) وهن اللواتي لا يملكن صك حريتهن، وإنما هن طوع مالکهن الذي يبعهن متى أراد أو اكتفى منهن، ولذلك كان مصير كل حاكم ينظر لشعبه هذه النظرة الدونية أن يسقط في الامتحان، وقد كان وراء سقوط الحاكم أسباب أجملها الشاعر بقوله^(١):

حيثُ تَلَفَّتْنَا وَجَدْنَا المَخْبِرَ السَّرِيَّ فِي انْتِظَارِنَا

يَشْرَبُ من قَهْوَتِنَا ..

يَنَامُ فِي فِرَاشِنَا

يَعْبَثُ فِي بَرِيدِنَا

يَنكُشُ فِي أَوْرَاقِنَا

يَدْخُلُ من أُنُوفِنَا

يَخْرُجُ من سَعَالِنَا

لِسَانِنَا مَقْطُوعٌ ..

وَأُرسُنَا مَقْطُوعٌ ..

وخبِرْنَا مَبْلَلٌ بالخوفِ والدموعِ ..

وفي أطار إكمال الشاعر لصورته الساخرة، فإنه يصور إحدى طرائق الحكام في السيطرة على شعوبهم عبر المخبر السري ما أداه من دور فاعل في تغلغله في أدق جوانب حياة الشعوب العربية كافة، بثا للرعب والخوف، فكأنه خيالهم الذي لا يفارقهم، وأمعن الشاعر في رصد تصرفاتهم الشنيعة في استباحة حقوق الرعية وتصويرها فلا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا عدها عليهم حتى أنه يشاركهم النفس بدلالة (يدخل في أنوفنا) و(يخرج من سعالنا) وكأنه المرض القابع في صدورهم، والرعية لا حول لها ولا قوة

(١) م. ن : ٢ / ٦٤٧ .

فلسانها مقطوع لا تستطيع حتى الشكوى ورأسها مقطوع لا محالة أن تفوهت بكلمة فحالتها كالأموات.

وبذلك تتجلى لنا عمق الوشائج العلائقية بين العنوان ونصه ، فالعنوان "دلالة كلية تتطوي على أبعاد عميقة تحوي معاني شاملة (وهو) الكلمات التي تختصر التفاصيل ، وتجمع الأشتات، وهو البداية والنهاية والجوهر الذي تدور في مداره عناصر القصيدة" (١)، على أن الشاعر يختتم قصيدته بالإشارة إلى الحراك نحو التغيير فليس كل ما في الوطن بغايا وجواري، فقد أضاف عنصراً ثالثاً يمثل أساس رفض هذا الواقع ودعاة قلب الموازين على الحاكم الجائر؛ وهم العصافير التي تحترف الحرية، إذ يقول الشاعر (٢):

يا وَطْني: كلُّ العصافير لها منازلٌ
إِلَّا العصافيرُ التي تحترفُ الحرِّيَّةُ
فهي تموتُ خارج الأوطان..

ولعل الحكام العرب لم يخلوا من السقوط الدائم في امتحان حقوق، بل تجاوزوا الحد عندما أرادوا تدجين الخامس من حزيران وما يحمله لهم من ذكرى أليمة في نكسة الخامس من حزيران عندما هُزم العرب في حرب ١٩٦٧م أمام الكيان الصهيوني الغاصب، واحتلال أجزاء جديدة من بلادنا العربية والى يومنا هذا دون أي حراك للتحرير ولذلك اختار الشاعر عنواناً ساخراً تتجلى فيه عمق المفارقة بين معاناة الشعوب العربية من النكسة ووبلاتها وتذكرها بالأسى وبين محاولات الحكام تدجين حزيران ودعوته للترفيه عن نفسه في بلادنا عبر (دعوة اصطيفاف للخامس من حزيران) (٣)، فإذا تأملنا العنوان فإن (دعوة) خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هذه) ولعل حذف المبدأ هنا جاء لرغبة الشاعر في "الإسراع بنقل الخير إلى القارئ نظراً لأهميته، واستقرار تفكيره عليه دون المبتدأ" (٤) ، أما من حيث البنية الدلالية، فالدعوة توجه للآخر للمشاركة في أمر معين ضمن البروتوكولات الرسمية أو الاجتماعية مثلاً، وكأن الخامس من حزيران زائر أو حالة غريبة على الحكام

(١) أوراق في النقد الأدبي، إبراهيم رمانى، دار الشهاب، بانته، ط١، ١٩٨٥م: ١٨٦ .

(٢) الأعمال السياسية الكاملة: ٢ / ٧٥٠.

(٣) م ، ن : ١ / ٥٦ - ٥٨ .

(٤) علم العنونة: دراسة تطبيقية، عبد القادر رحيم، دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠١٠م: ١٨٢ .

العرب، وليس حالة معاشة وأثارها بادية على بلادنا العربية قاطبة، ومما زاد سخرية العنوان اقتران الدعوة بالاصطياف والترفيه، فأبي اصطياف وبلادنا مغتصبة! وحدودنا منتهكة! ومدننا مدمرة من القذائف جراء ذلك العدوان، والحكام يحاولون تجميل الواقع المر وتجاوزه بدل علاجه واستعادة الحق المستلب، لقول الشاعر في مفتتح النص^(١):

سنةً خامسةً تأتي إلينا ..

حاملاً كيسك فوق الظهر .. حافي القدمين ..

وعلى وجهك أحزانُ السماواتِ ..

وأوجاعُ الحسينِ ..

فالشاعر قدم صورة استعارية فقد شبه الخامس من حزيران بإنسان متعب الخطى، حزين الملامح، منكوب المشاعر على سبيل الاستعارة المكنية فحذف الإنسان وأبقى بعض لوازمه (الظهر، القدمين، والوجه) ،وكأن الحكام العرب يستهجنون حالة الخامس من حزيران وهيئته المتعبة وصورته المأساوية، لأنه يمثل رمزاً للمهجرين الفلسطينيين المشردين هنا وهناك الذين يمثلون ثقلًا على كاهل الحكام العرب فهم من يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، فرؤية الحكام للمهجرين تكدر صفوهم المزيف، لأنها تذكرهم بالهزيمة التي يحاولون تناسيها وصورها شاخصة أمامهم كل يوم ، فضلاً عما تنيره صورة المهجرين عند الشعوب العربية من الاستهجان والغضب على كل حاكم وتشويه صورة البطل (الفارغ) التي رسمها كل حاكم لنفسه ،ولذلك أراد الحكام تغيير صورة الخامس من حزيران التي تزعجهم، إذ يقول قباني على لسانهم: ^(٢)

نحنُ ندعوك لتصطافَ لدينا

مثل كلِّ السائحين

وسنعطيك جناحاً ملكياً

لكَ جهّزناه من خمس سنين

سوف تستمتع بالليل .. وأضواء النيون

ويرقص (الجيرك) و (الجاز) وأفلام الشنودة ..

(١) الأعمال السياسية الكاملة: ١/ ٥٦ .

(٢) م، ن : ١/ ٥٧ .

فُهنا ..

لا نعرفُ الحزنَ، ولا مَنْ يحزنونُ ..

سوفَ تُنسيكُ فلسطينَ ..

ونستأصلُ من عينيكُ أشجارَ الدُموعِ

وسئُلي سورةَ (الرحمن) ..

و (الفتح)

ونغتالُ يسوعَ

فالسخرية عند قباني عميقة الأثر - في القصائد وعنواناتها على حد سواء - وقد أضافت إليها دوراً جديداً كالبعد الثالث في اللوحة، وقباني ينساق إلى السخرية بفعل موقفه المتمردة لأنه غير راض عن حياتنا العربية، يشهر سيف غضبه على أمور كثيرة كالكسل والحذر في حياة الناس وهزيمة حزيران وهزائم السياسة العربية التي تتحول إلى انتصارات بقدرة قادر وسخرياته "لا ترسم - غالباً - على شفاهنا أكثر من الابتسامة، في حين تكوي أعماقنا بأسياف حامية على طريقة الطب العربي"^(١) إذ يعتمد هنا التضاد بين حالين إبرازاً للسخرية المرة؛ بين حال الخامس من حزيران و مأساويته (الذي يرمز للفلسطينيين المهجرين) بحال (السائحين المصطافين ولاسيما الصهاينة) وشتان ما بين الاثنين، فالخامس من حزيران كما مثل المهجرين الفلسطينيين فإنه يمثل بالصورة الضدية موقف الحكام العرب من الصهاينة بعد النكسة ومرور خمس سنوات وذلك بتوجيه الدعوة لهم لا للفلسطينيين ليخترقوا بلادنا وينفذوا مخططاتهم التوسعية ويطمئنونوا لاستكانة الشعوب العربية وانشغالهم بمظاهر اللهو والمفاسد قاطبة في بلادنا، وضياع عاداتنا الأصيلة وتمسكنا بقشور الحضارة الغربية البائسة ليمحوها صورة فلسطين من ذاكرة العرب تماماً، لا بل هناك ما هو أبشع بإلغاء سورتي (الرحمن والفتح) وما فيهما من معاني ودلالات ففي سورة الرحمن وصف آلاء الله سبحانه ونعيم جناته، واستبدالها بجنان حكامنا المصطنعة لرفاهية العدو في بلادنا، أما سورة الفتح فتذكرنا بفتح مكة المكرمة وتطهير بيت الله الحرام

(١) السخرية في شعر نزار قباني، نجيب كيالي، جريدة الأسبوع الأدبي، العدد ١٠١٥، في ١٥ تموز،

من الأصنام والقضاء على جهادية الكفار هذا من جهة، وهي إيذان من الله بأن المسجد الأقصى سينتظر من أيدي الغاصبين، فضلا عما فيها من تذكير المهاجرين الفلسطينيين بما جرى للرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) وهجرته من مكة إلى المدينة المنورة، وما لاقاه من الأذى (صلى الله عليه وسلم) ليعود إليها بعد حين فاتحا ومحررا فلهم في رسول الله أسوة حسنة يسيرون على نهجه متلاحمين متآزرين لقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ (١)﴾، وليس هذا حسب بل إن حكامنا سيقتلوا ويغتالوا اليسوع عيسى بن مريم (عليهما السلام) وما يمثله من رمز التضحية والفداء والسلام، لأنه يذكرهم بفلسطين فهي مهد المسيح ومجمع الأخوة الصادقة بين الأديان كافة، وبذلك فإن هذا التدجين يقضي بالغاء لُحمة العرب الدينية والفكرية وفق أجنداث خارجية تركز سياسة التجزئة والهيمنة والاحتلال.

وإذا انتقلنا إلى عنوان آخر من قصائد نزار قباني السياسية فنرصده سخرية أخرى من ممارسات الحكام العرب بحق شعوبهم العربية، عبر إنهاء زمن البطولات والفتوحات والقيم الأصيلة البارزة في تاريخنا العربي والإسلامي الخالد وبيعها بثمن بخس، ولا سيما الرامزة إلى الصراع مع الغرب - صهيوني متمثلة بالقائد العربي الإسلامي (خالد بن الوليد)، وتجلت هذه السخرية في عنوان (مرسوم بإقالة خالد بن الوليد)^(٢) ، الذي يخبر بما جرى لهذا القائد فقد اجبر على التتحي عن مركزه العسكري ليعود إنسانا عاديا، فأول إنجازات هذه الحكومات العربية المتخاذلة إصدار هذا المرسوم، وإعلانه على الناس جميعا إشعارا لهذا الشعب بأن زمن الانتصارات قد ولى ولا مكان للجهاد والنضال في زمن هذه الحكومات المتخاذلة، أما عن سبب ذلك كله فجوابه في النص، فكأن العنوان مثل الموجز الذي "يمدنا بزاد ثمين لتفكيك النص ودراسته.. إنه يقدم معرفة كبرى لضبط انسجام النص،

(١) سورة الفتح ، من الآية: ٢٩ .

(٢) الأعمال السياسية الكاملة: ١/١٣٣-١٣٧.

وفهم ما غمض منه" (١)، أما الدلالات المكونة للنص فما هي "إلا امتداد لتمطيط فكرة مفردات العنوان" (٢)، وبذلك ينقضي زمن المعارك والبطولات التي خاضها هذا البطل كاليرموك وحطين وحروب الردة وغيرها من سفر التاريخ العربي الخالد ، بل إن جرائم الحكام تجاوزت كل الحدود ،ولذلك نجد الشاعر يسخر من سياسات الحكومات العربية التي حولت من ذلك القائد ودلالاته الرمزية في البطولات والجهاد والثورات إلى متسكع في شوارع جنيف، إذ يقول قباني (٣):

سَرَقُوا مِنَّا الطَّمُوحَ الْعَرَبِيَّ
عَزَلُوا خَالِدَ فِي أَعْقَابِ فَتْحِ الشَّامِ ،
سَمَّوْهُ سَفِيرًا فِي جَنيفِ ،
يَلْبَسُ الْقُبْعَةَ السُّودَاءَ ..
يَسْتَمْتَعُ بِالسِّيَجَارِ .. وَالكَافِيَارِ ..
يُرْغِي بِالْفَرَنْسِيَّةِ ..
يَمْشِي بَيْنَ شَقَرَاتِ أُورِيَا ..
كَدِيكَ وَرَقِيَّ ..
أَتْرَاهُمْ دَجَّنُوا هَذَا الْأَمِيرَ الْقُرَشِيَّ
هَكَذَا تُخَصِّي الْبَطُولَاتُ لَدِينَا يَا بُنَيَّ ..

فالحكومات المتآمرة باعوا الوطن وسرقوا كل ما فيه حتى الزمان العربي ورموزه الشاخصة التي تحولت إلى مسخ إعلانا عن سياستهم المرابية المتخاذلة، فنزار هنا يمنح رمزه سمة خاصة تتسجم مع التغيرات السياسية والعسكرية الحرجة التي تمر بها الأمة ، فلم تكن مكافأة هذا القائد الأوسمة والنياشين بعد فتح الشام ، وإنما إقالتة وفقده لسمته العسكرية المنضبطة ليتحول إلى صفة مدنية ويصبح سفيرا في جنيف وكأنه راض عما حدث ! فصوره الشاعر يلبس القبعة السوداء، ويتمتع بمظاهر اللهو والمجون ويتسكع في

(١) دينامية النص : تنظيف وانجاز ،د. محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء ، ط١، ١٩٨٧م :٧٢.

(٢) التناص في شعر الرواد :دراسة ،احمد ناهم ،دار الشؤون الثقافية العامة ،بغداد، ٢٠٠٤م : ٧٧ .

(٣) الأعمال السياسية الكاملة :١/ ١٣٤ .

شوارع أوربا بين الشقراوات كديك ورقي أفرغت منه مظاهر الأنفة والرجولة ولا يعرف إلا الاستسلام والليونة.

ولعل هذا الازدراء في وصف القادة العظام يتناسب والصورة الحالية وما يتسم به عصرنا من انحدار، فتحول خالد إلى وظيفة سفير تحمل الكثير من "دلالات الحدق والمهارة والدبلوماسية والليونة والخداع والتي لا تتفق البتة مع سمات العسكري.. ولا يخفى ما يحمله اختيار اسم جنيف دون عواصم العالم كلها من مقاصد المسألة والمهادنة، فهذه المدينة تعكس حالة التراخي والتفاهم والرضا وكلها سمات لا تليق بقائد عسكري يتوجب على الأمة أن تستثمر جهده في مجاله الحقيقي"^(١) ويمكن أن يكون هذا الأمر طبيعياً لو كانت حكوماتنا تحقق الانتصارات على أعدائها في زمننا! غير أن الغرابة في الأمر أنها هزمت في كل حروبها ثم خدعت نفسها بالرضا وانحسار دورها، إذ "يكشف موقف نزار عن تحول الأمة عن رسالتها، فقد تخلت عن عنصر القوة وسعت إلى المهادنة والمسايرة مما يفصح انهيار الحلم العربي بالنصر والحرية"^(٢).

على أن دقة الصورة الساخرة في شعر نزار قادت بعض النقاد إلى الحكم عليه بأنه ثائر على القيم فهو "شاعر الحداثة بامتياز وممثل العلمانيين العرب في محاربة القيم والمبادئ"^(٣)، إلا أنه في الوقت نفسه لم يغفل عن القضايا الاجتماعية والسياسية التي يواجهها العالم العربي فكان يرى أن الشاعر هو "صوت شعبه وسوطه أيضاً، فإذا انتقده وعراه فليس ذلك بهدف الكشف عن عوراته ومساوئه، وإنما لكي يحثه على النهوض والسير إلى الأمام بدلا من الخنوع والاستكانة والاستسلام لمرض فقدان المناعة"^(٤)، ولذلك نراه يستنقهم منكرًا على الحكومات فعلهم الشنيع بسخرية لاذعة لقوله^(٥):

أتراهم دجنوا هذا الأمير القرشي
هكذا تُخصى البطولات لدينا يا بُني ..

(١) مغاني النص: ٢١ .

(٢) م، ن: ٢٢ .

(٣) نزار قباني شاعر الحداثة والمرأة والحب، عبد الله المغربي: ١ . bla3almaniya.maktoobblog.com

(٤) نزار قباني شاعر الحب والثورة، حسونة المصباحي: ٧ . montada.sptechs.com

(٥) الأعمال السياسية الكاملة: ١/١٣٤ .

(*) مأخوذة من اسم الروائي النمساوي (ليوبورد ساشر مازوخ) ينظر: شعرية السرد: ١٦٢ ومصادره

فكثيرا ما يقترن بالسخرية بنزعة تسمى نزعة جلد الذات أو (المازوخية)^(*) وهي بنية موضوعية وتعني ذلك الشعور السلبي الذي غالبا ما ينمو عند البشر في أوقات الهزيمة والإحباط والإخفاق ليغطي على كل نجاح على قلته ولتحل الهزيمة والإحباط مكانه ، فينشأ في الذهن شعور داخلي في النفس بالهرب أو التقوقع على الذات واجترار الهزيمة حتى إدمانها^(١)، ولهذا تميز شعر نزار بعد نكسة حزيران "بالغضب العنيف ويرفض جميع المؤسسات، والأفكار، والخرافات القديمة، ويمارس على نفسه وعلى قومه أجراً عملية نقد ذاتي مارسها شاعر من قبل، وبشر بولادة إنسان عربي جديد يتخلص من أوهامه وخدره ورومانطيقيته ويواجه القرن العشرين بمنطقه وأسلحته"^(٢)، فأغلب كتاباته في شبابه كانت تتحو منحى التهجم والثورة على القيم والمبادئ، أما بعد النكسة وقتل زوجته (بلقيس) تحول نحو تجسيد قضايا الأمة ومعاناتها الاجتماعية والسياسية، وان موقفه من التراث تراوح جراء ذلك بين الرفض تارة والتأييد والدفاع عنه تارة أخرى^(٣)، إذ كثيرا ما يسرد أخبارا تركز على القادة العرب كصلاح الدين وطارق بن زياد ويأتي تركيزه على القادة إشباعا لرغبة العربي في ظهور القائد الفارس الذي ينتشل الأمة من واقعها المرير وينظم صفوفها ويجمع كلمتها فيقول: ^(٤) متحسرا وساخرا من الحكومات.

يا صلاح الدين ،

باعوك، وباعونا جميعا ..

في المزاد العثني ..

سرقوا من طارق معطفة الأندلسي

أخذوا منه النياشين، أقالوه من الجيش ،

أحالوه إلى محكمة الأمن ،

أدانوه بجرم النصر، هل جاء زمان

صار فيه النصر محظورا علينا يا بُنيّ ؟.

(١) ينظر: م. ن. ١٣٠٠ .

(٢) السخرية في الشعر الحر: ٣ .

(٣) ينظر: استدعاء الشخصيات التراثية في شعر نزار قباني، خالد يسير، مجلة الأسبوع الأدبي، العدد ٧٥٢، لسنة

www.awu.sy/archive/alesbouh/752/isb025.htm

١ : ٢٠٠١

(٤) الأعمال السياسية الكاملة: ١/ ١٣٤ - ١٣٥ .

ثُمَّ هل جاء زمانٌ؟
يقفُ السيفُ به مُتَّهما
عند أبواب القضاء العسكريِّ
ثم هل جاء زمانٌ؟
فيه نستقبلُ إسرائيلَ بالورد... وآلافِ الحمائمِ

....

ثم هل جاءَ زمانٌ؟
أصبحَ التحريرُ والتحذيرُ فيه توأمينِ ..

وقباني عندما يتحدث عن هذه الرموز السياسية فإنه يعبر بها عن معاني سامية من العزة والشرف والتفوق التي حققتها الأمة في تاريخها، وهي شواهد قادرة على فضح الأوضاع السياسية القائمة^(١)، فجرم النصر على أعدائنا كان مدعاة وذريعة لاستباحة الحرمات وبيع كل شيء لمن يدفع أكثر في المزاد العلني فغيروا هوية طارق بن زياد الأندلسي وأحالوه إلى محكمة الأمن بوصفة مجرم حرب! ليعاقب على جريمة النصر! واستمررا في سرده لأحداث الأمة الخالدة نراه يطرح مجموعة من الأسئلة لابنه - الذي يرمز للأجيال القادمة- حتى لا تنسى مآثر أمتنا ويستنكر فيها كم التنازلات الهائلة التي يقدمها الحكام بصيغة التكرار للسؤال نفسه (هل جاء زمان) الذي شكل لازمة أسلوبية تكرارية، تضافرت مع تكرار جملة (سرقوا منا الزمان العربي)، والتوازيات التركيبية للأفعال (أقالوه،أحالوه،أدانوه) المتواشجة جميعا لإيجاد تفسير لهذه الأوضاع المنقلبة .

والشاعر إذ يضمن في نصه أبرز شخصيات القادة والمحربين في تاريخنا العربي الإسلامي فإنه يشير إلى قدم صراع امتنا مع (الغرب- صهيوني)، فعلي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) اقترن اسمه مع أول نصر على اليهود في (خيبر)، وعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) هو الذي استلم مفاتيح بيت المقدس، وخالد بن الوليد قاد الحملات العسكرية في الشام، وطارق بن زياد فتح بلاد الأندلس وصلاح الدين الأيوبي آخر محرري بيت المقدس من الاستلاب الصليبي،ولهذا كان توجيه الخطاب له لأنه يمثل ناقوس الخطر الذي يشير إلى استلاب تاريخ القدس من للصهاينة، وربما في ذكره إشارة

(١) ينظر: مغاني النص: ١٨ .

إلى فساد الدين فلا يصلح لنا دين بعد احتلال القدس وضياعها^(١)، فإذا كان الشاعر يسرد هذه الرموز في محاولة منه لبث روح النضال واستنهاض الهمم في شعوبنا العربية، فإنه في الوقت نفسه يسخر من سياسات الحكومات المتواطئة التي رفعت شعار التخاذل وأصدرت لائحة بال ممنوعات؛ فالنصر محذور والسيف متهم، وحكوماتنا تستقبل المحتل الغاصب بالورود بدل الرصاص والمدافع، وبذلك تساوى في سياسة حكوماتنا التحرير مع تخدير المشاعر وسياسة التطبيع مع الغاصب فهما توأمان لا يفترقان وشتان ما بين الأمرين وتضاد الحالين!؟

واستمرارا مع تجليات السخرية يطالعنا عنوان جديد يمثل امتدادا لرسم الصورة الانهزامية للسياسات العربية تجاه واقعا العربي ممثلة بعنوان (جريمة شرف أمام المحاكم العربية)^(٢)، فالعنوان يخبر عن جريمة اغتصاب، ويفترض أن يحدد فيها الجاني الذي سيأخذ جزاءه العادل وسيحاكم إلا أن ما عمق سخرية العنوان عند قباني - أن جريمة مدنية تتعلق بالشرف - ترفع وتناقش أمام المحاكم العربية واختياره للمحاكم العربية، فيه إشارة إلى أن القضية ستقيد ضد مجهول! لان المحاكم العربية جزء لا يتجزأ من النظام الذي تنتمي إليه وتسير على منواله، إذ إن العدالة شبه غائبة - إن لم تكن معدومة - فهذه حالة متواضع عليها حتى وان كانت القضية جريمة شرف!! وهذا سبب سخرية نزار التي يفتتحها بالقول:^(٣)

... وَفَقَدْتُ يَا وَطَنِي الْبَكَارَةَ ...

لم يكثرث أحد ..

وسُجِّلَتِ الْجَرِيمَةُ ضَدَّ مَجْهُولٍ

وَأُرْخِيتِ السُّتَارَةَ ...

فإذا كان العنوان يطرح إشكالية سؤال ضمنى فإن النص جوابه، ما الجريمة؟ ومن الجاني؟ ومن المجني عليه؟ فقد اتضحت الصورة ولماذا خصصت جريمة الشرف لتتظر

(١) ينظر: قصيدة نزار قباني (القدس) الرؤية والواقع، عبد الكريم محمد حسين، مجلة جامعة دمشق،

عدد خاص بعنوان القدس عاصمة الثقافة العربية: ٢٠٠٩.

(٢) الأعمال السياسية الكاملة: ١/٦١-٦٤.

(٣) م، ن: ١/٦٢.

أمام المحاكم العربية لأنها قضية الوطن الذي فقد بكارته بالاحتلال وهي أشنع قضية في التاريخ ، إذ كيف تغتصب أرض عربية مقدسة! وتنتزع من شعبها انتزاعاً! ويشرد ذلك الشعب ليحل محله الغاصب الغاشم! إنها قضية فلسطين المركزية، فالجاني هم الصهاينة المحتلون، والمجني عليه فلسطين وشعبها المهجر، أما دور المحاكم العربية فليس لها إلا الصمت رامزة إلى سياسات حكوماتها العميلة، لأنها قيدت القضية ضد مجهول على الرغم من وجود أدلة الاغتصاب وانتزاع الأرض بالقوة من أهلها التي تشير إلى الجاني صراحة لا ضمناً؟! فأبي خضوع هذا، فالشاعر هنا قدم نهاية الحكاية قبل بدايتها بيانا لأهمية القضية ، فإذا كان العدوان صادماً للمتلقي فإن مفتاح القسيمة أشد صدمة وأخطر وقعا، لأن القضية التي يعالجها النص ليست قضية عادية بل هي مصير وطن وشعب بأكمله والأدهى إن أحدا لم يكثرث لهذا المصاب الجلل ، ومما عمق دلالة السخرية أيضا بناء الأفعال للمجهول (سُجلت، وأرخيت)، فالشاعر بذلك قدم مشهدا مأساويا لعرض مسرحي كبير ليأتي بعدها ذكر الأسباب التي أوصلتنا إلى هذه الجريمة إذ يقول: (١)

نسيت قبائلنا أظافرها
تشابهت الأنوثة والذكورة في وظائفها ،
تحولت الخيول إلى حجارة ..
دخلوا علينا ..
كان عنترة يبيع حصانه بلقافتي تنبع ..
وقمصان مشجرة ..
ومعجون جديد للحلاقة ..
كان عنترة يبيع الجاهلية ...
- يا سادتي .. إنَّ المخطَّط كَلَّه من صنَّع
أمريكا ، وبتروول الخليج هو الأساس ،
وكُلُّ ما يبيقى أمورٌ جانبيةً
كُلُّ القوانين القديمة والحديثة عندنا ضدَّ
الضحية ...

(١) م، ن: ٦٢/١ - ٦٣.

والعالمُ العربيُّ ..

يضحكُ لليهود القادمين إليه ...

من تحت الأظافر ..

فالمقطع الأول يضم سبب هذه الجريمة وهو سيادة الفرقة وضياع الرجولة، والتخلي عن معارك التحرير، فلا حاجة لوجود الخيول المغيرة على الأعداء، لعدم وجود الرجال الأقوياء، ولتفرق أبناء العروبة والإسلام في استرداد الحق المغتصب. في حين أن المقطع الثاني يمثل بيع كل قيمة عربية أصيلة لشراء قشور الحضارة الغربية الدخيلة التي تسللت عبر الاحتلال البغيض ممثلة بعنزة رمز البطولة، بيد أن عنزة الزمن الحاضر باع حصانه وبطولاته بلقاقتي تبغ! وقمصان مشجرة! ومعجون للحلاقة! وهي من توافه العرض والكماليات الزائفة مقابل نفائس الجوهر (القيم والمبادئ)، فالشاعر هنا انحرف برمز عنزة التراثي إلى دلالة سلبية مغايرة لسيرته مشعرا بتخليه عن حياته الأصيلة، إذ لا داعي لتلك الشجاعة والبطولات أو حتى تذكرها طالما أن اليهود دخلوا من تحت الأظافر إلينا؟! واغتصبوا شرف فلسطين وحصل هذا التحول "انطلاقاً من الدلالة المعاصرة التي دفع الشاعر رمزه لحملها أو أودعها فيه بصرف النظر عن موقفنا النقدي - التاريخي من الشخصية المستدعاة، إذ إن أهميتها متأتية من دلالاتها الحيوية في النص" (١)، ولذلك فلا عجب من الشعوب وحكامها أن تغير شهادتها، وتكر علاقاتها استمراراً في الاستكانة، وتغير وجهة القضية، بل وحرقت ملفاتها كاملة، فالكيان الصهيوني انتزع فلسطين واغتصبها وانتهى الأمر والكل ملازم للصمت، ولذلك استحضر قباني بيت المتنبي الذي يقول فيه (٢)

لا يَسْلَمُ الشَّرْفُ الرَفِيعُ مِنَ الأَدَى كَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ

ويكرره أكثر من مرة من خلال التناص استنهاضاً للهمم الغافية، إذ يقول نزار (٣)

" لا يَسْلَمُ الشَّرْفُ الرَفِيعُ !"

(١) مغاني النص: ١٦.

(٢) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، ناصيف اليازجي، مطبعة مدبولي، القاهرة، (د. ط)، (د. ت).

: ٦٣٢/٢.

(٣) الأعمال السياسية الكاملة: ١/٦٢.

ونحنُ غيرنا شهادتنا.. وأنكرنا علاقتنا ..

وأحرقنا ملفات القضية ..

إلا أن قباني لم يحدد عدم سلامة الشرف الرفيع من أي شيء فقد تركه عائماً على عكس المتنبى الذي حدده بالأذى، اختتم مقولته بعلامة تعجب وكأنه ينفي أن يكون هناك شرف رفيع أصلاً بعد اغتصاب فلسطين ، ولذلك أسند كل الضمائر إلى العرب والحكام كافة ، وتكرر الضمير (نا) خمس مرات، فكان تكرار الضمائر في الصورة الفنية قد شكل سلسلة خيوط متقاطعة هدفها تحقيق مجموعة دلالات عميقة لتكشف عن نفسية مليئة بالألم لما آل إليه الواقع^(١).

ولعل آخر تجليات السخرية عند نزار قباني ما يظهر من ردود أفعال الجماهير العربية على سياسات الحكام العرب المتخاذلة - تجاه القضايا المصرية - لذلك سيقومون بثورة! ولعل هذا الأمر يعد من أهم الحلول وأكثرها قوة وأثراً في التغيير نحو الأفضل، بيد أنها ثورة من نوع خاص! إنها (ثورة الدجاج)^(٢)، فهذا العنوان يعد من أهم العناوين الرمزية الساخرة، رمز به الشاعر للشعوب التي لا ترتضي سياسة الحاكم، بيد أنها خاضعة كالدجاج لسطوته، وبنية العنوان تشي بكسر لأفق توقع القارئ؛ فالثورة شيء معهود ولكن غير المعهود اقترانها ب(الدجاج)! فالعنوان عبارة عن سيمفونية ساخرة، وهي إخبار عن حراك فريد، ولذا حذف المبتدأ اهتماماً بالخبر، وتبرز السخرية التناقض من اجتماع لفظتي (ثورة، والدجاج)، فالثورة تحمل دلالات التمرد والتغيير، والدجاج يحمل دلالات الضعف والرضوخ وانتظار المصير وسهولة الانقياد، على أن انزياحية العنونة يفسرها النص، إذ يقول الشاعر: ^(٣)

نحنُ دجاجُ القنِصِرِ...

نأكلُ قَمَحَ الخَوْفِ ،

ونشربُ من أمطارِ الملحِ

(١) ينظر: الأسلوبية الرؤية والتطبيق، يوسف أبو العدوس ، دار المسيرة، عمان - الأردن، ط١، ٢٠٠٧م:

٢٣٢.

(٢) الأعمال السياسية الكاملة: ٧٢٢/٢ .

(٣) م، ن، ٧٢٢/٢ .

كلّ نهارٍ ..

فالحاكم هنا يأخذ دور القيصر، أما طعام هؤلاء الدجاج فقمح إلا أنه ليس كالقمح العادي إنه قمح الخوف لأنهم مهددون بالذبح في كل لحظة لانتفاضتهم ، فمصيرهم معلوم لان الحاكم سيذبح كل الدجاج الذي يريد التمرد والثورة عليه ، أما الماء الذي يشربونه فمن أمطار الملح كناية عن كثرة البكاء جراء التعذيب والإذلال ، وفي إشارة (كل نهار) تنبيه للقارئ أن هؤلاء الثوار لديهم عمل مهم في الليل من خلال استمرار التعذيب على أيدي البوليس لقول الشاعر (١)

يأتينا البوليسُ قبيل صلاة الصُبحِ

يَسْتَجُونَنَا ...

ويهدّدنا ..

ويُعَلِّقنا ..

بين السيفِ .. وبين الرُمحِ.

فهم بين الاستجواب والتهديد والتعليق بين أدوات التعذيب والتكيل ليلا، والذي يبقى منهم يعلف في النهار قمح الخوف من سطوة الظالم ليأتي الدور عليهم لاحقا، وقد حقق توازي الجمل الفعلية المتوالية ب(يستجوننا، ويهددنا، وتعليقنا) أهدافا مهمة أفادت الترتيب في الإرهاب والترويع في وسائل التعذيب والإذلال من جهة ، فضلا عن الهدف الإيقاعي الذي جاء خادما لتعميق الدلالة محققا تفاعلية تواصلية بين عنصري الإيقاع والدلالة المتلازمين، على إن الصورة الساخرة لهذه الثورة لم تكتمل إلا بتحديد نهايتها وأية نهاية لقول الشاعر (٢)

نحنُ نَجَاجُ القيصرِ ...

يعلفنا في فصل الصيفِ،

ويذبحنا في عيد الفصحِ

وكأن إعدام هؤلاء الثوار احتفال من ضمن سلسلة الاستعدادات للاحتفال بعيد كبير، إنه عيد الفصح الذي تقدم الذبائح ولا سيما الدجاج وهي من مراسم السرور والاحتفالات

(١) م ، ن: ٧٢٢/٢

(٢) م ، ن: ٧٢٢/٢

الدينية . فالثورة يجب أن لا تكون صادرة من دجاج ضد قيصر إنما ثورة أبطال ضد طاغية ، وثورة ضد دجاج القيصر فالثورة لا بد أن تأتي لتغيير الواقع وليس لتعمق المأساة ، فعلى الرغم من أن الدجاج يعرف مصيره إلا إنه استمر بأكل قمح الخوف وشرب ماء الملح وهذا أقصى ما فعلوه ، فالشاعر يدعو ويبحث عن ثورة شاملة يكون فيها العرب هم أصحاب المبادرة والتغيير، إذ يقول (١)

نحنُ الذين نرسُمُ الخريطةَ

ونرسُمُ السفوح والهضابُ

نحنُ الذين نبدأ المحاكمةَ

ونفرضُ الثواب والعقاب..

الخاتمة:

- كشف البحث عن صعوبة تحديد تعريف جامع للسخرية مانع لغيره من التعريفات نظرا لتداخل السخرية مع علوم أخرى ولا سيما البلاغة وعلم النفس ، فضلا عن تداخلها مع مصطلحات مقاربة لها كالتورية والمفارقة والتهكم والهجاء والكوميديا وغيرها كثير، وهذا ما يجعل من السخرية مصطلحا متجددا وقابلا للتطوير .

- تكون السخرية عادة على نوعين: إما أن تكون سخرية لا تعتمد هدفا إلا الإضحاك فقط ، وإما أن يكون الضحك فيها لهدف كشف الحقائق ويعتمد الإيلام والمرارة - ثمة علاقة وثيقة بين السخرية والسياسة فإذا كانت السياسة تعني الأمر والنهي وتصريف شؤون العباد والبلاد ، ولاسيما ما يتعلق منها بإدارة شؤون الدول داخليا وخارجيا ، فإن الشعر السياسي يفرض على الأديب تبني فكرة التزام قضية معينة والثبات عليها والدفاع عنها والوقوف بوجه من يناقضها ، لذلك فالسخرية صرخة الحق في وجه الظلم والظالم .

- تتميز السخرية بتنوعها وتعدد أنماطها بين اجتماعية وثقافية وسياسية، ولعل الأخيرة أهم أنواع السخرية لشموليتها فكل الأنواع الأخرى تكاد تدخل ضمنها، ونتاجة عن ضعف الإدارة السياسية وفشلها، وشكلت سخرية العنوان ميزة للشاعر نزار قباني لان

(١) م ، ن : ٥٢/١ .

اغلب عناوين قصائده كانت ائتلافية بين العنوان والنص الساخرين وهذا ما تميز به الشاعر نزار قباني، إذ إنه من أهم الشعراء الذين كتبوا عن السياسة وسخروا من الحكام العرب ومن مواقفهم المتخاذلة تجاه القضايا المركزية لامتنا العربية كفلسطين ونكسة الخامس من حزيران فمارس أجراً عملية نقد ذاتي على نفسه وأبناء جلدته، واعتمد طريقة جلد الذات أو ما تعرف (بالمازوخية) .

- تميزت اغلب العناوين الساخرة في الأعمال السياسية لنزار قباني بشيوع الجمل الاسمية المتكونة من المبتدأ والخبر، وكثير ما كان المبتدأ محذوفا اختصاراً لإيصال الخبر وما فيه من سخرية تلفت انتباه المتلقي أو تصدمه من سياسات الحكومات العربية وأفعالها متجسدة بضياع حقوق الإنسان مثلاً، وإقالة زمن البطولات والفتوحات، ثم القضاء على الثورات .

Irony in Political Works of Nazar Kabbani-The Structure of Title as a sample

Lect.Dr. Wasan -A- Mallalah Al-Mukhtar

Abstract

This study aims at shedding light on irony as a modern literary and critical term especially if it is connected with kabbani whose style is obviously ironic.

His political literary works are almost, controvecid. As there are different kinds of irony ,This study concentrates on the irony of title for it is quite obvious in kabbanis works. The title is the first step through which the reader reaches the semantic the indexical areas and the aesthetic dimensions of the text through concentrating on certain idea the policy of the Arab readers after Junes War-His titles how ever are not formed to arouse hum our and paradoxes only but they came to express a creative view and abstract distinctive meaning .